من الأدب البولندى

ستانسلوس أوجاخوفسكى

STANISLAUS ORZECHOWSKI

أحد الأحرار

للأستاذ حسين غنام

كانت دعوة مارتن لوثر المشهورة لا زالت طفلة غضة تحبو على يديها ورجليها ، ولكنها كانت تتعثر كثيراً وتصطدم بعقبات قاسية ، فحاربها البطاركة والرهبان فى مختلف الأديرة والكنائس ، وحاربها الملوك والأمراء والأعيان ، بل حاربتها الشعوب أنفسها

وكان طبيعياً أن تتسرب تلك الدعوة الجريئة ، فى أوائل القرن السادس عشر ، من بروسيا مهدها ومنشأها إلى جاراتها القريبة ، وخاصة بولندا ، وتلاقى صدى عند المفكرين الأحرار وأنصار التجديد الأجرياء

ولكن بولندا فى تلك العصور كانت خاضعة خضوعا عجيباً للبابا فى روما . وكان البابا الكاثوليكى الرومانى أشد خصوم دعوة لوثر التى ترمى إلى تجديد الدين وإصلاحه ، دأب رجال الدين جميعاً فى محاربة كل تجديد ، أو ما يسمونه بدعة أو فتنة ! فما بالك بخليفة الله فى الأرض ، وما يحيط به من آيات الجلال والتقديس ، وهو يخشى أن تزعزع تلك الدعوة كيان روحانيته على الشعوب التى تقدسه ؟

فكانت كل دعوة إلى الأخذ بآراء مارتن لوثر ، أو ميل إلى تجديد الكنيسة يقابل بحرب عنيفة ولا شك مبعثها البابا ، والمحرض الأكبر عليها هو وأعوانه الكثيرون

ولكن على الرغم من ذلك وجد بعض الأجرياء فى بولندا فى ذلك الحين ، ولعل أول هؤلاء المصلحين الذين أثروا تأثيراً كبيراً فى الكنيسة البولندية والحياة البولندية جميعاً هما أندرو مودجاڤسكى وستانسلوس أوجاخوڤسكى . ولكن ثانيهما كان أبعد أثراً وأجرأ قلباً وأعنف قلما وبيانا ، وأشد إقداما وأرسخ قدما من زميله

تلقى هذا الرجل علومه فى وتنبرج ، فاعتنق مذاهب المجددين وتشرب نظرياتهم وآراءهم ، ثم صار تلميذاً للمجددين الدينيين العظيمين « مارتن لوثر » و « بلانختن »

ثم نزح إلى إيطاليا وقضى فيها مدة قصيرة عاد بعدها إلى بلده . وكان ذلك سنة ١٥٤٣ ، والتحق بالسلك الدينى مبتدئا برتبة صغيرة ما زال يتدرج منها حتى رقى فى زمن وجيز إلى وظيفة القسيس الأول فى پشيمزل Przemysl

وكان وقتئذ عضواً فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، ولكنه لم يستطع أن يخفى شعوره ضدها ، وعملت فيه آراء أستاذيه المصلحين الكبيرة ، كما استفزه قريبه الشاعر «رى»[1] فكان لا يفتأ يعلن آراءه ويرددها غير خائف ولا وجل

وكان المذهب الدينى الغالب آنئذ فى مقاطعة (جاليسيا) — إحدى مقاطعات بولندة فى ذلك الحين — هو المذهب الأرثوذكسى . وكان هذا الرجل يقيم فى تلك المقاطعة ، وفيها إرشيفته التى يعمل فيها ؛ فأخذ يكتب ويكتب فى تمجيد العقيدة اليونانية ، والدفاع عنها ، وكان هذا ضد وظيفته ، ولكنه لم يأبه لذلك ، فقد كان غرضه مهاجمة البابا الكاثوليكى ، والتعرض له فطلبته السلطات الدينية العليا للمحاكمة . واستطاع بعضهم أن أن يؤثر عليه تأثيراً مؤقتاً ، وطلب إليه الرجوع عن تعاليمه ونبذها ، ثم أحرقوا كتابه الذى أعلن فيه هذه الآراء

ولم يكن عن ضعف رجوع الرجل عن آرائه ؛ فدأب المصلح أن يمهد الطريق ، ويجس النبض ، ولا يتردد فى إخفاء هامته للعاصفة القوية حتى تمر سراعاً ، ثم ينتصب من جديد قوياً

فإن إذعان ستانسلوس لتلك السلطات الدينية كان إذعاناً وقتياً ؛ فقد تزوج بعد ذلك بأمد وجيز من ماجدالين خلتسكى ضارباً بهذا الزواج تقاليد الكنيسة التى يمثلها ، فدعاه مطران پشيمزل ليحاكمه على ما أتى ، أمام محكمته ، فذهب ستانسلوس برفقة صحبة قوية من أصدقائه ؛ فخشى المطران أن تحدث فتنة ، فلم يستطع أن يفتتح الجلسة ، وآثر أن يحكم على القسيس النافر غيابياً ، ففعل ، ثم وقع مرسوماً بفصله عن الكنيسة وتجريده من جميع رتبه الكنسية

وأعلنت فضيحته ، وقيل إنه خارج على الدين الرسمى للدولة ، وصودرت أملاكه . ولكنه لم يفزع لشىء من ذلك . ومرذات يوم بكنيسة أثناء تأدية الخدمة الدينية فيها ، فدخلها وتكلم فى الجمع الحاشد بها ، محتكما إلى المصلين ، ومعلناً براءته مما نسب إليه

---

(١) « رى Rej » هو الشاعر البولندى العظيم نيقولاس رى ، ١٥٠٥ — ١٥٦٩ من الذين ثاروا على اللغة اللاتينية واستعاضوا لغتهم البولندية القومية فى كتاباتهم ، بعد أن كانت اللاتينية هى اللغة المستعملة وهو من الذين تأثروا بعهد النهضة فى أوربا Renaissance . ومن أحسن أعماله كتاب « المرآة أو حياة الرجل الشريف » ، وكتابه فى الحكم والأمثال ، ومسرحية عنوانها « يوسف فى مصر » .

ولم تطل مدة الحكم عليه ، فأصبح فى نظر الكثيرين بريئاً منه ، وانقلب التيار الآن وسار جارفاً قوياً ضد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وتطاول التيار ضدها ، حتى وصل مجلس الآراء ، ووجد كثير من الرجال الذين أخذوا يناصر أوجاخوفسكى وآزروه

قال المستر جيروم هورسى السفير البريطانى لدى بلاط الروسيا فى ذلك الحين ، فى بعض مذكراته : عندما جئت ڤلنا ، أكبر مدينة فى لتوانيا ، قدمت نفسى وأوراق كندوب من الملكة ، فقابلنى الأمير (راچفل) ، وهو أمير عظيم ذو حول وطول ، ويعتنق المذهب البروتستانتى !)

فمن هذا يبدو لنا كيف نجح أوچاڤسكى فى تحويل التيار ، حتى بين الأمراء ، ضد الكنيسة البولندية التى حاربته

وفى مجلس الأمراء ظهر أوچاخوفسكى ظهوراً عظيما ، فقرأ على الأعضاء نصوص الحكم عليه بقطعه من الكنيسة ، وتساءل عما إذا كان فى استطاعة الأكليروس أن ينصرفوا فى حياة إنسان مثل هذا التصرف

وكان قرار المجلس حينئذ أنه فى مثل هذه الأشياء التى تتعلق بمواطن بولندى يجب أن تعرض على مليكه ليتصرف فيها

ولكن أوچاخوفسكى وجه خطاباً جريئاً إلى الملك وإلى مجلس الأعيان ، ونجح فى إرجاء هذا العرض ، وقرر المجلس أن يستشيروا البابا فيما إذا كان يبقى أوچاخوفسكى زوجته أم يطلقها

ورأى أوچاخوفسكى أن العاصفة هذه المرة قوية ضده أيضاً . فآثر أن يحمى لها هامته للمرة الثانية ، ريثما تمر كما مرت سابقتها ، فهادن الكاثوليك الرومانيين بعد ذلك . وفى السابع عشر من فبراير عام ١٥٥٢ برىء من قطعه عن الكنيسة وأعلن خضوعه للمجلس الدينى فيما يتعلق بالعقائد ، ولكنه تخلى عن قدره ورتبه الكنسية ، آملاً أن تعترف السلطات الرومانية الدينية بزواجه .

كان هذا النبيل رجلاً قوياً جديراً أن يعمل الكثيرون على استمالته ، وكان همهم الأكبر أن يفصلوه عن البروتستانت ، ولكنه لم يكن ممن يحترمون البابوات (الأحبار الرومانيين) ، فخاطب يوليوس الثالث بهذا الأسلوب : (تأمل ، يا يوليوس ، وتبصر جيداً ؛ مَن من الرجال ستفعل فعلتك معه . إن هذا الرجل ليس إيطالياً تفرض عليه سلطانك وجبروتك ، والواقع أنى رجل روسى[1] وهو ليس تحت رعويتك البابوية الخسيسة ، ولكنى مدنى من مملكة يجب حتى على ملكها أن يحترم قانونها ويطيعه . إن فى استطاعتك أن تحكم على حتى بالموت ، إذا أحببت ، ولكنك لن تستطيع أن تنفذه فىّ . ولن ينفذ الملك ، حكمك ، لأن الأمر يجب أن يعرض على مجلس الأعيان . إن الرومانيين يحنون قامتهم ويركعون أمام جوع خدامك وأجرائك ، ويحملون على أعناقهم نير الذل والعبودية عن كتاب الرومان الجبناء . . . ولكن هذه الحال لن تكون معنا . فحيثما يحكم القانون ؛ فلا العرش ، ولا الملك ، ولا الحاكم ، بمستطيعين أن يفعلوا ما يريدون ، فالحكم لا يكون إلا للقانون وما يشرّع . إنه لن يقول ، حالما تشير إليه بأصبعك ، أو تبهر عينيه بخاتم الصياد السحرى الذى فى يدك ، يا ستانسلوس أوچاخوفسكى ! إن البابا يوليوس يريدك أن تذهب إلى الدنق ، فيجب عليك أن تذهب ، ولكنى أؤكد لك أن الملك لا يمكن أن يريد ما تريد أنت ؛ فإن قوانيننا لا تسمح له أن يسجن أو ينفى أى شخص لم تحكم عليه محكمة خليقة بالحكم)

وأدرجت أعمال أوچاخوفسكى ضمن القائمة السوداء فى الفهرس البابوى ، وأعلن الكتاب الكنسيون أنه خادم من من خدم الشيطان

ولكنه بدل أن يرتدع بمثل هذه التصرفات ، فقد انفجر ثائراً بتجريحات أقوى ، وكتابات أعنف ، وإليك مثالاً من مخاطبته للبابا پول الرابع : (بما أن هذا المكروه العربيد المشوه الأخرق ، الذى يسمى نفسه پول الرابع ، قد أخرج موسى والمسيح من الكنيسة ، فإنى سأتبعهما على حريتى ورغبتى ؛ فهل أستطيع اعتباره شيئاً خاطئاً بكرامتى أن أكون زميلاً لهذين اللذين يسميهما الأخرق البغيض هرطيقين ؟ هذا سيكون شرفاً لى وتاجاً يتوج رأسى . إن إهمال التعاليم القديمة أفسدنا وأذلنا وجردنا من شرفنا . يا پول ! حذار أن تجر على إرشيفتك الخراب الأخير . نظف المدينة من جرائمها ، واستأصل بذور الخسة والدناءة فيها ، ولا تجر وراء الأرباح التى تجنيها لمصلحتك إنى سأشرح لمواطنى ، بكل صراحة ووضوح ، أن الفساد الرومانى يضر الكنيسة ويؤذيها أكثر مما يضرها التواء اللوثرية)

بهذا وبمثله كان يخاطب أوچاخوفسكى البابوات الرومانيين . وهو لم يكتف بذلك . فقد تناول هذا البابا فى رسائل أخرى بالتجريح العنيف ، وحمله من المذمات والقدح والشتم حملاً هائلاً ، ثم بدأ مؤلفاً جديداً — لم يطبعه — ولكن بعض أصدقائه حدث أنه رآه مخطوطاً وقرأه ، وهو فى هذا الكتاب .

(١) أوچاخوفسكى مواطنا من روسيا الصغيرة .